مقدمة

ليس الأدب الحق تسلية وترفيهاً وإنما هو رسالة وقيادة .

كم من أديب خلال العصور فتح أمام الإنسانية آفاق حياة جديدة فكان بمثابة مكتشف عظيم ، يكشف مغاليق النفس الإنسانية ويرى المستقبل قبل غيره ويتجه بالحياة والمجتمع إلى الطريق السوىّ .

والواقع أنه إذا كان من الممكن اعتبار « نيوتن » و « فراداى » وغيرهما سحرة بارعين فكذلك الكاتب يجب أن يكون ساحراً بارعاً . نعم ! فلقد كانت الجاذبية والكهرباء موجودتين قبل أن يكتشفهما العبقريان المجيدان ولكنهما لم يغيرا حياة الأفراد إلا بعد اكتشافهما . كذلك الكاتب هو الذى يجدد الحياة عن طريق كتبه أنه هو الذى يخلق صداقة جديدة وحبا جديداً وبطولة جديدة وعذابا جديداً . . أنه الذى يرفع قراءه إلى درجة من الأدراك تجعلهم قادرين على أن يقولوا « نعم » أو « لا » وهذا الإدراك نفسه هو الذى يمكن المصلحين من توجيه الفرد بل تغيير تفكيره لأنه يكون قد تحرر من جموده وأضحى مرن الذهن كامل التمييز .

إن لتطور المجتمع الإنسانى قانونا علميا لايستطيع أن يقف

سيره إنسان . فالكاتب الأمين هو ذلك الذى يأبى إلا أن يتطور فنه بتطور مجتمعه فيعبر عن آماله وأحلامه، يفضح عيوبه ونقائصه، يحمل العلم ليسير فى الطليعة ويشق الطريق الذى لامناص منه . ولكم عانى الكتاب التقدميون من النظم الرجعية وحكم الظلام فى سبيل التمسك بعقائدهم والإخلاص لفنهم والدفاع عن شعوبهم التى استبد بها الطغاة الذين استأثروا بالسلطان على اعتبار أن الجماهير ما هى إلا « قطيع غبى » غير قابل للصلاح وغير قادر على الإصلاح ، ومع ذلك واصلوا كفاحهم واضعين نصب أعينهم أن الشعب وخيره هو الهدف الأول لكل سياسة سليمة ، وأن قيمة الأمة بأفرادها لا بمظاهر الترف والنعيم التافه ، وأن « الفرد هو أثمن أنواع رأس المال » فى نظر كل أمة حية تريد أن تتابع ركب الحضارة . وأن تكوين « الفرد » وتفتح شخصيته لا يمكن أن يتأتى إلا فى جو من الحريات الكاملة وأولها حرية العلم المجردة من كل توجيه خاص فى سبيل ثقافة حقة .

فى كل أمة توجد جماعة من رجال الجمود تنظر إلى ظاهرة انتشار التعليم أخيراً برعب وجزع لأن هذا التعليم كان ولا يزال إلا حد كبير احتكاراً لطائفة خاصة أوصلها إلى الحكم ومضاعفة الجاه وهى الآن تخشى أن تفقد هذا الاحتكار . وأكبر مثل على ذلك أنه فى عام ١٩٣٤ ظهر فى فرنسا إحصاء يبين أن عدد الطلبة

المقيدين فى جامعات فرنسا قد ارتفع بين عامى ١٩٠٠ و ١٩٣٤ من ٢٩ ألف إلى ٨٧ ألف طالب ، ورغم تفاهة هذه الزيادة بالنسبة لأمة كفرنسا خطت خطوات واسعة فى التقدم فان رجال الرجعية فيها هبوا يشكون من « زيادة الإنتاج فى المتعلمين » . ولقد صرح ذات يوم قبل اندلاع الحرب العالمية الأخيرة أحد وزراء فرنسا فى حديث له مع مراسل مجلة « كانديد » بقوله « لقد آن الأوان لخلق فعلة وبنائين ومبيضين مما تحتاج إليهم فرنسا أكثر من حاجتها إلى حاملى ليسانس الآداب » !

وهذه النغمة التى تتردد فى كثير من البلاد ترينا أن رجال الرجعية ينظرون إلى تضخم الإنتاج فى التعليم نظرتهم إلى تضخم الانتاج فى الصناعة ، أو بعبارة أخرى ينظرون إلى الآدميين نظرتهم إلى البضائع ، وإلى الثقافة نظرتهم إلى مسألة تجارية استغلالية وهم لذلك يحاولون أن يحلوا مشكلتها بإحدى الطرق التى يلجأون إليها لحل أزمة تضخم الانتاج الصناعى وهى التقليل منه قدر الطاقة ! لقد نسى هؤلاء أو تناسوا أنه إذا كان هناك حقا مشكلة من كثرة المتعلمين وحملة الشهادات رغم ضآلة عددهم بالنسبة لمجموع الأمة فهذه المشكلة لا تحل برجعية تحارب العلم وتهدر الثقافة بل بتطور اجتماعى واقتصادى يسير مع روح العصر مما قد يجعل العدد الموجود من المتعلمين أقل بكثير مما تحتاج إليه البلاد .

ومن عجب أن العدوى قد سرت من رجال السياسة إلى عدد من الكتاب والمؤلفين . من ذلك مثلا أن بعض أعضاء « جمعية رجال الأدب » فى فرنسا أثار منذ بضع سنوات فى الجمعية مسألة « الدفاع عن المسرح والكتاب الفرنسيين بتحديد ترجمة المؤلفات الأجنبية » كأن أنانية أولئك الكتاب تبرر حرمان الشعب الفرنسى من قراءة ثمار العقول العالمية من أجل ضمان توزيع مؤلفاتهم ومؤلفات أمثالهم وإن كانت لاترضى أذهان طلاب الثقافة الحقة وضمائرهم .

فإذا كان هنالك أدباء ينظرون إلى الثقافة هذه النظرة التى نظر بها بعض أعضاء « جمعية رجال الأدب » فى فرنسا فذلك لأن هنالك أدباء اتخذوا من الأدب بضاعة للكسب فحسب ، وهم بذلك أهل لخيانة الثقافة والفكر إذا اقتضت مصلحتهم الذاتية ذلك ، فتراهم يتقلبون مع الأهواء ، مستخدمين أقلامهم فى التملق لدى السادة ، ويعيشون حياتهم أشبه ما يكونون بالحرباء ، يتلون الواحد منهم كلما تغيرت ضروب مغامرته وتحولت سبيل مصلحته ووصوليته .

كذلك هنالك أدباء ينظرون إلى الأدب على أنه وسيلة للمتعة والتسرية فلا يلمسون فى معالجة الموضوع إلا جزءاً من حياة الفرد . لقد خلق المجتمع الحاضر تفاوتا صارخا بين الناس من حيث ثرواتهم وكفاءاتهم وأعمالهم ، فعند مايستسلم الفرد يوما من الأيام

لتحقيق متعة عاطفية مثلا ينتهز الأديب السطحي هذه الفرصة بشهوة مريضة ليستغلها ويخرج منها موضوعا حسيا سارا لقرائه ، ناسيا أن هذا الحادث العرضي في حياة شخصيته ليس له من أهمية ولا يمكن الخروج منه بنتيجة إلا إذا كان مرتبطا بحياته كلها وبالمجتمع الذي يعيش فيه .

* * *

وبعد . فهذا الكتاب يضم دراسات أدبية عن عدد من كبار رجال الأدب المعاصر ممن كان الأدب في نظرهم رسالة مقدسة ومثلا أعلى ، وكان لتفكيرهم — وإن اختلفت نزعاته — تأثير كبير في الاتجاهات الفكرية الحديثة ، فنشأ لهم اتباع ودعاة في مختلف البلاد ، ليس فقط بين طائفة القراء والمثقفين بل أيضا بين شباب الأدباء .

ولقد راعيت قدر الطاقة الحيدة التامة في الكتابة عنهم ، شارحا نواحي فنهم ، مبينا آراء النقاد في تفكير كل منهم حتى تكون الدراسة مستوفية العناصر ، محققة الغرض المنشود .

علي كامل